

كرسي الغائب

حمادة حامد محمود نور الدين

في مقهى «الأمل» عند ناصية الحيّ القديم، كان هناك كرسيٌّ خشبيّ قرب النافذة لا يجلس عليه أحد. لم تكن عليه لافتة ولا حبلٌ يمنع الجلوس، لكنّ الزبائن، حين يدخلون ويقلّبون أعينهم بين الكراسي، يتجاوزونه دون أن يعرفوا لماذا، كما يتجاوز الناس بقعةً مبلّلة في الطريق.

كان صاحب المقهى العمّ فتحي يضع أمام ذلك الكرسي كلّ مساءٍ كوب شايٍ بنصف ملعقة سكّر، ويتركه يبرد، ثم يصبّه في المغسلة قبل الإغلاق. ولم يسأله أحدٌ عن السرّ، إلى أن جاء الولد.

كان اسمه كريم، في الثانية والعشرين، يعمل نادلاً مؤقتاً لأنّ جامعته أغلقت أبوابها تلك السنة، ولأنّ أمّه مريضة. في أسبوعه الأول رأى الكرسي، ورأى الكوب، فقال: «يا عمّ فتحي، لماذا لا أنظّف هذه الطاولة؟ الشاي برد.»

قال العمّ فتحي دون أن يرفع رأسه عن دفتر الحساب: «اتركه. هذا شاي الأستاذ بدر.»

«ومتى يأتي الأستاذ بدر؟»

«لا يأتي. منذ أربعين سنة.»

ظنّ كريم أنّها نكتة، لكنّه رأى وجه العمّ فتحي فسكت.

في تلك الليلة، بعد أن خلا المقهى، بقي كريم يمسح الأرض، وكان الدخان القديم ما يزال عالقاً في السقف كغيمةٍ مسنّة. ورأى، أو ظنّ أنه رأى، الكوب يرتجف. ثم خفّ البخار عن سطحه قليلاً كأنّ أحداً ارتشف منه. التفت إلى الكرسي فلم يجد أحداً، غير أنّ الوسادة المهترئة كانت مضغوطةً كما لو أنّ جسداً غادرها للتوّ.

جلس كريم على أقرب كرسي. وقال بصوتٍ خافت، لا يدري لماذا: «مساء الخير.»

وجاءه من الفراغ صوتٌ رقيق مثل ورقة تُقلب: «مساء النور يا بنيّ. هل بقي أحدٌ يلعب الطاولة هنا؟»

لم يهرب كريم. كان قد تعلّم من مرض أمّه أنّ الخوف لا يغيّر شيئاً. قال: «لا أحد. لقد بيعت الطاولات القديمة. لكنّني أعرف أن ألعب.»

وهكذا بدأ الأمر. كلّ ليلةٍ بعد الإغلاق، كان كريم يضع لوح الطاولة بين الكرسيّين، يحرّك الأحجار البيضاء، ثم السوداء بدلاً من الغائب،

وينتظر الصوت الآخر ليعلن حركته. كان الأستاذ بدر لاعباً بارعاً حزيناً، يحكي أثناء اللعب عن مدينةٍ كانت أنظف، وعن الشعراء الذين كانوا يجلسون إلى هذه الطاولة، وعن امرأةٍ اسمها سلوى كان ينتظرها هنا عند السادسة، وقد قالت له: «سأتأخر قليلاً.»

«وهل جاءت؟» سأل كريم.

«لا أعرف. خرجتُ لأشتري لها ورداً، ولم أعد. دهستني سيارة عند الناصية. لكنّني كنت أريد أن أنتظرها هنا لأنّني وعدت ألا أغادر قبل أن تأتي.»

فهم كريم عندئذٍ لماذا لا يجلس أحدٌ على الكرسي. المقاهي القديمة تحفظ وعود روّادها، كما تحفظ الجدران رائحة الدخان. وكلّ كرسيٍّ في العالم يحمل شخصاً ينتظر.

مرّت الأسابيع. تحسّنت صحّة أمّ كريم قليلاً، وتعلّم هو أن يقرأ في الكرسي أسراراً صغيرة: متى يفرح الأستاذ بدر (حين تهطل الأمطار على الزجاج)، ومتى يحزن (حين يدخل المقهى عاشقان). وفي إحدى الليالي سأله: «يا أستاذ بدر، وإن لم تأتِ سلوى أبداً؟»

وفي ليلةٍ ماطرة، سأله الأستاذ بدر عن أخبار الدنيا، فحكى له كريم عن الهواتف التي تتحدث دون أسلاك، وعن الأولاد الذين يرون العالم في شاشةٍ صغيرة. ضحك الصوت وقال: «هذا شبيه بما كنا نفعله هنا: نحدّق في دخان السجائر ونرى فيه وجوه من نحب.» ثم صمت وقال: «أنتم لم تتغيّروا كثيراً. ما زلتم تنتظرون.»

قبل أن ينصرف تلك الليلة، سأله كريم إن كان يشعر بالوحدة. قال الأستاذ بدر: «الوحدة أن لا يسمعك أحد. أما أنا فقد سمعني أربعون سنةً من الستائر والجدران، والآن سمعتني أنت. هذا يكفي لرجلٍ مثلي.» وفي صوته شيءٌ يشبه الشكر، جعل كريم يخجل من شكواه الصغيرة.

سكت الصوت طويلاً. ثم قال: «ربما قد جاءت، وانتظرتني على كرسيّ آخر، في مقهىً آخر، ولم نلتقِ. هذه هي الحكاية الحزينة يا بنيّ: أن يجلس اثنان في الانتظار نفسه في مكانين مختلفين.»

في الصباح التالي ذهب كريم إلى العمّ فتحي وقال: «أريد أن أسألك. هل تعرف سلوى؟»

ارتجفت يد العجوز على الدفتر. ثم قال بصوتٍ لم يسمعه كريم منه من قبل: «سلوى هي أختي الكبرى. ماتت منذ عشر سنين في بيتها الصغير خلف المسجد. وكانت تقول لي دائماً: خطيبي بدر لم يأتِ يوم الخميس، وأنا ما زلت أنتظره في قلبي. لم أخبرها قط أنّ بدراً مات تلك الليلة. خفت أن أكسر آخر ما كان يعيش في عينيها.»

ثم أخرج من درج المكتب وردةً مجفّفة بلا لون، وقال: «وجدتها بعد دفنها في جيب فستانها. كانت تحتفظ بها منذ أربعين سنة. لم أعرف لمن هي.»

حملها كريم، وفي تلك الليلة وضعها على الكرسي الفارغ. وارتفع من الشاي بخارٌ كثيف، وامتلأ المقهى فجأةً برائحة الورد والياسمين والخبز الساخن. جلس كريم صامتاً، والعمّ فتحي واقفٌ عند الباب بيدين ترتجفان.

ثم سمع الاثنان صوتاً آخر، رقيقاً مثل نغمةٍ قديمة: «بدر. لقد تأخرتُ يا حبيبي. هل ما زلتَ هنا؟» وجاء صوت الأستاذ بدر كأنه يضحك ويبكي معاً: «ما زلت هنا يا سلوى. لم أبرح. لم أبرح.»

لم يرَ أحدٌ منهما شيئاً، لكنّ الكوب ارتفع قليلاً في الهواء، وارتشف منه أحدٌ شاي الانتظار الطويل، وسُمعت ضحكةٌ واحدة تجمع صوتين. وحين انحسر الدخان كان الكرسي فارغاً تماماً، والوسادة مرتفعةً كأنها لم تُجلس منذ ألف سنة. أما الكوب فكان فارغاً، نظيفاً، يلمع.

في صباح اليوم التالي وجد الزبائن الكرسي مثل أيّ كرسي. جلس عليه رجلٌ ضخم يقرأ جريدة، ولم يشعر بشيء غير دفءٍ غريب في ظهره. ولم يعد العمّ فتحي يصبّ الشاي في المغسلة.

وأما كريم، فقد عاد إلى جامعته في الخريف، وصار يمرّ على المقهى كلّ خميس، يجلس عند النافذة ويطلب كوبين من الشاي. ويقول لمن يسأله: «الثاني لأحدٍ لم يتأخر هذه المرة.»

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app